بشرط أن يعطي خبزا يرضيه ، وحضر سنقر المشطوب ، وحلف واشترط أن يرضي وحضر أيبك الأفطس رحمه الله واشترط رضاه ، وحضر حسام الدين بشارة ، وحلف وكان مقدما على هؤلاء ولم يحضر أحد من الأمراء المصريين ، ولم يتعرض لهم بل حلف هؤلاء للتقرير ، ونسخة اليمين المحلوف بها مضمونها : إني من وقتي هذا صفيت نيتي ، وأخلصت طويتي ، للملك الناصر مدة حياته ، وإني لاأزال باذلا جهدي في الذب عن دولته بنفسي ومالي ، وسيفي ورجالي ، ممتثلا أمره واقفا عند مراضيه ، ثم من بعده لولده الأفضل علي ووريثه ، ووالله إنني في طاعته وأذب عن دولته وبلاده بنفسي ومالي وسيفي ورجالي ، وأمتثل أمره ونهيه وباطني وظاهري في ذلك سواء ، والله على ماأقول وكيل .

## ذكر وفاته رحمه الله وقدس روحه

ولما كانت ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر ، وفي الثانية عشرة من مرضه اشتد مرضه وضعفت قوته ، ووقع في أوائل الأمر في أول الليل ، وحال بيننا وبينه النساء واستحضرت أنا والقاضي الفاضل في تلك الليلة وابن الزكي ، ولم يكن عادته الحضور في ذلك الوقت ، وحضر بيننا الملك الأفضل ، وأمر أن نبيت عنده ، فلم ير القاضي الفاضل ذلك رأيا فإن الناس كانوا في كل ليلة ينتظرون نزولنا من القلعة فخاف أن لاننزل فيقع الصوت في البلد وربما نهب الناس بعضهم بعضا ، فرأى المصلحة في نزولنا واستحضار الشيخ أبي جعفر أمام الكلاسة ، وهو رجل صالح ليبيت بالقلعة ، حتى إذا احتضر رحمه الله بالليل حضر عنده وحال بينه وبين النساء ، وذكره الشهادة ، وذكره الله تعالى ، ففعل ذلك ، ونزلنا وكل منا يود فداءه بنفسه وبات في تلك الليلة على حال المنتقلين إلى الله تعالى ، والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن ، ويذكره الله تعالى ، وكان ذهنه غائبا من ليلة التاسع لايكاد يفيق إلا في أحيان ، وذكر الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى إلى قوله تعالى ( هو

صاحب جزيرة ابن عمر ، فساروا ، فلما وصلوا الى ماردين نزلوا اسفل جبلها ، وشرع نور الدين بجمع الرجالة ليزحف الى ربض ماردين ويقاتل العسكر العادلي من تحت ويقاتلهم أهل ماردين من فوق ، لعلهم يظفرون بهم ويزيلونهم قهرا ومكابرة ، مع تعذر الصعود في الجبل الى الربض ، إنما همته كانت عظيمة لا يعتقد انه يعجزه شيء . فاتفق ان العسكر العادلي نزل عن الربض الى قتال العسكر النوري ، ونزل الرجالة في الربض ليمنعوا القلعة من النزول ، فجاء امر لم يكن في الحساب ، فالتقوا واقتتلوا .

وكان قطب الدين صاحب سنجار قد واطأ العسكر العادلي على أن ينهزم بين أيديهم ولم يعلم بذلك احدا ، فقدر الله تعالى ، أنه لما نزل العسكر العادلي واصطفت العساكر ، ألجات قطب الدين الضرورة والزحمة الى ان وقف في شعب بجبل ماردين ، ليس اليه طريق للعسكر العادلي ، ولا يرى الحرب بينهم وبين العسكر النوري لينهزم ، وإذا أراد الله أمرا فلا مرد له ، والتقى العسكران واقتتلوا واشتد القتال ، وكان السعيد نور الدين في القلب وإلى جانبه أخي مجد الدين على بغلة ، فقال له : في مثل هذا اليوم تركب بغلة ؟ فقال: الساعة نأخذهم برقابهم إن شاء الله تعالى ، فحمل العسكر العادلي على القلب النوري فزحزحوا عن موقفهم قليلا ، فقال أخي للسعيد نور الدين : تقدم قليلا ليراك الناس فيتقدموا وتشتد انفسهم ، فأخذ الرمح وحمل إلى المعركة ولم يشعر أخي به الا وقد حمل ، قال أخي : ولقد ندمت حيث قلت له ليتقدم حيث لم ينفعني الندم ، فحين رآه الناس قد حمل القوا ذفوسهم على العادلية فأخذوهم باليد ، وانهزم الباقون مصعدين في الجبل الى الربض ، وحمل الأسرى الى بين يدي نور الدين ، فرأى فيهم أميرا من اعيان العسكر وهو مكشوف الرأس ، فقام اليه واعتنقه ، وأخذ شيئا كان على رأسه فألبسه إياه بيده وأقعده إلى جانبه ، وأحسن الى المأسورين جميعهم ووعدهم الاطلاق إذا فرغوا من أمر ماردين .

وأما الملك الكامل والعسكر الذين معه ، فإنهم لما جنهم الليل

رحلوا عن ماردين ، فتقطعوا في ذلك الجبل وساروا نحو ميافارقين ، وأصبحت الأرض منهم بلقعا لا أنيس بها ، وأتى الخبر الى السعيد نور الدين رضي الله عنه ، فقال له بعض أصحابه ، اصعد الى الربض فليس دون ملك القلعة مانع لضعف من بها فتملكها صفوا عفوا ، ويكون هذا الموضع المثل : رب ساع لقاعد فقال : حاشا لله ان يتحدث الناس عني ان ناسا اعتضدوا بي واستنصروني فأغدر بهم ، ثم قال لأخي مجد الدين وهو عنده : ماتقول؟ فقال : الغادرون كثير ، وقد أودعت الكتب غدراتهم فهي باقية الى يوم القيامة ، وإنما لم يؤرخ عن أحد من الناس انه قدر على مثل ماردين وتركها وفاء وانعاما واحسانا . قال فقال لي : أرسل إلى صاحب ماردين ليرسل ذوابه الى ولايته وقراياه - وكان قد اقطعها للعساكر التي معه ، وأمر بكف أيديهم عنها وتسليمها إلى صاحبها - قال : فقلت له :إن اصحابنا لم يأخذوا درهما واحدا لتأخر ادراك الغلات ، فلو بقي الاقطاع بأيديهم إلى أن يأخذوا منها ما ينفقون منه على بيكارهم لكان مصلحة . فقال : لا نكدر انعامنا واحساننا اليهم ، ونحن نكفي اصحابنا . قال : فأرسلت الى صاحب ماردين ليتسلم بلاده فتسلمها وارسل اليها الذواب ، وهذه سيرة لم يؤرخ عن أحد من الناس مثلها .

وكان في عزمه المسير إلى حران وما والاها من البلاد الجزرية للاستيلاء عليها ، فمرض وعاد إلى الموصل ، ولو سار اليها لملكها ، لأن الملك الكامل وعسكره لما فارقوا ماردين قصدوا ميافارقين لعلمهم ان السعيد نور الدين يقصد البلاد الجزرية ، فأبعدوا عنها خوفا منه .

## ذكر عوده رضي الله عنه الى بلاد العادل والصلح بينهما

قد ذكرنا فيما تقدم عود المولى السعيد نور الدين رضي الله عنه عن ماردين مريضا فلما وصل إلى الموصل بقي اياما ثم عوفي فلما قوي ، عاد وجمع عسكره وسار الى البلاد الجزرية التي بيد العادل في سنة ست وتسعين وخمسمائة ، وعزم على حصرها ، وكان بها حينئذ الملك الفائز ولد الملك العادل ومعه عسكر كثير قد سيرهم والده اليه لحفظ البلاد من نور الدين ، فلما وصل الى رأس عين ، جاءته رسل الفائز ورسل من معه من أكابر الأمراء يرغبون في الصلح ويشيرون به ، فاقتضت المصلحة إجابتهم الى ماطلبوا فصالحهم على مابأيديهم ، وضمنوا ان يحلفوا له الملك العادل ، وحلفوا له على ذلك ، فأرسل الى العادل بالذي تقرر ، وسار مع رسوله أمير كبير من عند ولده فحلف له واتفقا واستقرت القواعد وأمنت البلاد ، وعاد السعيد نور الدين الى الموصل

## في ذكر حصر العادل مدينة سنجار وما فعله المولى نور الدين في حفظها وضبطها

في سنة ست وستمائة ، سار الملك العادل أبو بكر بن أيوب من الشام إلى سنجار في عساكر الشام ومصر والجزيرة وديار بكر فحصروها ، وبها صاحبها قطب الدين بن عماد الدين - وهو ابن عم المرحوم نور الدين قدس الله روحه فأرسل قطب الدين ولده الى الخدمة النورية مستجيرا ومستنصرا ، ثم سار إلى إربل ، الى الملك المعظم مظفر الدين ( كوكبري ( ١٤٣ ) ) في المعنى ، فأرسلا إلى العادل يشفعان في أمر سنجار ويطلبان ابقاءها على صاحبها وترك التعرض إليها ، فاعتذر عن الاجابة ، وذكر لصاحبها نذوبا

تقتضي قصده وحصره ، فجمع السعيد نور الدين عساكره ، ووصل إليه الملك المعظم مظفر الدين في عساكر إربل وشهر زور وأعمالها ، واجتمعا بالموصل بعد طول افتراق ، واتفقا بعد اختلاف ، ووثق كل واحد منهما بصاحبه وثوقا لامزيد عليه ، إلى حد أن مظفر الدين كان يبيت في قلعة الموصل ونور الدين بظاهرها في المعسكر ، وهذا غاية الائتلاف والاتفاق ، وعزما على المسير الى سنجار ولقاء العادل ومحاربته ، وانما منعهما عن ذلك ، أن أمير المؤمنين الناصر لدين الله اعز الله سلطانه ، أرسل رسولا ، وهو بهاء الدين بن الضحاك استاذ الدار العزيزة في اصلاح الحال ، وناهيك بهذا شرفا وجلالة وقدرا لنور الدين عند أمير المؤمنين اذ ينفذ مثل استاذ داره العزيزة ليسعى في اغراضه ، فأشار بهاء الدين بترك الحرب ، وقال : اي الطائفتين انهزمت ، كان وهنا عظيما في الاسلام لا يجبر وخرقا لا يرقع ، فسمعا واطاعا ، وسار إلى سنجار واجتمع بالعادل ، وجرت أمور ، وترددت الرسل ، واستقرت القاعدة على الصلح وابقاء سنجار على قطب الدين فرحل العادل عنها .

## ذكر وفاة المولى السعيد نور الدين قدس الله روحه

توفي المولى السعيد نور الدين - قدس الله روحه ونور ضريحه - في رجب من سنة سبع وستمائة ، وكان كثير الأمراض منحرف المزاج ، واختلف الأطباء في مرضه الذي توفي به . فقيل لوث مزاج ، وقيل قرحة وقيل غير ذلك . تنوعت الأسباب والداء واحد .

وكان رضي الله عنه قوي النفس في مرضه ، لم يغفل عن تدبير الملك وسياسته الى ان فارق الدنيا ، ولما اشتد مرضه انحدر في شبارة الى الحمامة المعروفة بعين القيارة ( ١٤٤ ) فلم يجد بها راحة ، فأصعد الى الموصل فأدركه أجله ليلا قبل الوصول إليها ، وكان معه المولى بدر الدين فتاه ، فكتم موته من طبيب وملاح وخادم

الى ان وصل الى البلدفأدخله الدار ميتا وتركه بالمكان الذي كان فيه مريضا ، ووكل ببابه من يمنع من الدخـول إليه ، وأمضى في نهـاره ذلك ماكان وصاه به في طريقه الى أن توفي فلمـا فـرغ مـن جمعيه ، أظهر موته آخر النهار ودفن أول الليل بالمدرسة التي أنشأها بباطن الموصل ، وقام في حفـظ البلد المقـام المرضي ، بحيث أن أهـل البلد الرجال والنساء باتوا يترددون عامة الليل الى الدار السلطانية ،فلم يفقد من أحد منهم الحبة الفرد . واشتد الحزن عليه ، ولم ينفعهـم اشتراكهم في المصيبة بـــه ، لأنه كان رفيقـــا بهـــم ، مشـــفقا عليهم ، ناظرا في مصالحهم . وأكثر الشعراء مراثيه وتأبينه .

قال فيه البليغ ما قال ذو العـ
ـي وكل بوصفه منطيق

وكذاك العدو لم يعد ان
قال جميلا كما يقول الصديق

ولما توفي كان عمره ( ثمانيا وثلاثين سنة ( ١٤٥ ) ) وكان ملكه سبع عشرة سنة واحد عشر شهرا . وكان أسمر ، خفيف اللحية والعارضين بالمرة ، مليح الوجه ، وقد أسرع إليه الشيب .

## ذكر شيء من سيرته

كان رضي الله عنه بعيد الهمـــــــــــة ، كبير النفس ، كريم الأخلاق ، حسن الصحبة مع مماليكه ، يمازحهم ويبسط معهـم ، كثير الاحتمال لما يبدو منهم ، فمن ذلك أنني أعلم أنه بقي عدة سنين يشكو من بعض أصحابه ويذمـه إلى أن قـال : ابتـلاه الله تعـالى بمخالفتي ، إن احببت انسانا ابغضـه ، وإن قـدمته أخـره ، وإن أعطيته حرمه ، ومع هذا جميعه ، فكان يحتمله ويحلم عنه ولا يظهر له شيئا من ذلك .

وكان رضي الله عنه يحلم عن ذوابه ويتغافل عنهم مع علمه بحركاتهم وسكناتهم ، ولقد قال يوما لمن يثق اليه : ماأجهل هؤلاء ذوابي ، يخدمني أحدهم وليس له شيء وعليه دين ، فما ينقضي عليه سنة حتى يوفي في دينه ويعمر الدور والاملاك ويرسل إلي يطلب أن يشتري مني قرايا ، ولو أن لهم عقلا ادخروا الأموال واشتروا بها أملاكا من غيري ، فإنهم يعلمون أنني أعرف أحوالهم قديما وحديثا ، ومع هذه المعرفة فكان يغضي عنهم كأنه لايعلم بشيء من أمرهم .

وكان - قدس الله روحه - كثير الاحسان الى رعيته والرفق بهم والقرب منهم ، سريع الانفعال للخير

حكي لي أخي مجد الدين رحمه الله تعالى - وكان غاية الخبر به - قال : ما قلت له في شيء قط من عدل وبذل مال أو غير ذلك من الصلاح ، فقال لا ، وحكي لي أيضا عنه قال :كنت معه في بعض اسفاره ، وكان له سردار بالموصل يكون معه مفاتيح داره ، فبلغه ان ولد السرداد قد سرق من داره شيئا ، فأرسل الي ليلا يأمرني أن اكتب كتابا الى الموصل بقطع يده ، فأعدت الجواب : إنني ماأكتب هذا الكتاب الليلة ، وإذا اجتمعت به غدا أعرفه ماعندي في هذا فأعاد ، مرة ثانية وثالثة وأنا امتنع من ذلك ، فاستدعاني ، فحضرت عنده فقال لي : لم لا تكتب كتابا ؟ فقلت له : عادتي معكم انني لا اكتب الا ما تجيزه الشريعة ، فقال لي : هذا سارق توجب الشريعة المطهرة قطع يده ، فقلت له : لا قطع عليه ، لأنه من غير حرز لأن المفاتيح بيده ، فعفا عنه .

ومن رفقه برعيته وتعطفه عليهم ، أنه كان له غلام قد خدمه قديما في صباه واوجب عليه حقا ، وكان يؤثر ان يقدمه ويفوض إليه أمرا ، فولاه ولاية الموصل ، فسلك مع اهلها سيرة فيها بعض الخشونة ، فكتب إليه بعض أهلها يذكر له شيئا مما يفعله هذا النائب فعزله ، وبقي مدة معزولا ثم حمله طول خدمته له على ان

ولاه غيرها ثانية ووصاه بالاحسان والرفق . فغلبت عليه عادته ، فعزله ثانيا ميلا في هوى رعيته واستمالة لقلوبهم وحفظا لهم ، ومن ذلك انه مرض مرضا شديدا غير مرضه الذي توفي فيه وعظم مرضه ، فكان الناس على طبقاتهم يحضرون كل يوم باب داره محبه له ، فبطلت معايشهم ، فكان يتكلف في بعض الأوقات العقود لهم ، ويأمر بادخالهم جميعهم إليه ففي بعض الأيام حضر أخي مجد الدين والناس على الباب مجتمعون ، فحين رأوا أخي استغاثوا وقالوا : نريد نبصر صاحبنا ، فلما دخل رآه وبه قوة ، فأشار عليه بالقعود لهم والانتقال الى مكان فسيح لكي أن يدخل إليه جميع الناس ، ففعل وتكلف الحركة واحتمل المشقة طلبا لرضاهم ، إذ علم انهم يؤثرون أن يروه .

وأما وقاره ، وهيبته في حركاته وسكناته وملبوسه فاليه النهاية ، لم يكن يلبس إلا مالا يعيبه به أحد ، فلم يكن يلبس الذهب والحرير والألوان التي يستحسنها الشباب ، ولا يترك على دابته حلية من ذهب ولا غيرها ، بل ترك ما كان يسلكه غيره من قواعد السلطنة وألقاه تحت قدمه ونزه نفسه عنه أنفة منه .

وأما شجاعته ، فالذي ذكرنا من حاله يدل على غاية الشجاعة وقوة النفس ، وزيادة الاقدام ، ونحن نذكر ههنا نكتة ، وهي انه رضي الله عنه عزم على قصد بلاد العادل مما يليه ، وكذلك أيضا عزم الملك الظاهر بن صلاح الدين يوسف صاحب حلب ، والسلطان غياث الدين وغيرهما ، كل منهم يقصد ما يليه منها ، فأقام العادل بحران ليكون في الوسط ليبادر الى من يسبق الى التقدم ، فاتفق ان السعيد نور الدين كان منحرف المزاج وزاد به ذلك ، فرأى مصالحة العادل فصالحه ، وكان العادل لا يزال يراسله سرا يستميله ، فلما تم الصلح بينهما سار العادل عن حران الى دمشق ، فقيل له لو اقمت حتى ينفصل الحال مع الباقين لكان جيدا ، فقال : ليس فيهم من يفكر فيه ، إنما الذي يخاف ويرجى هو نور الدين ، ومن عداه

فليس بشيء ، وسار ولم يقم فكان كما قال ، ليس فيهم من يحرك ( ساكنا ) ومن ذلك أن العادل كان له ديار مصر ، والشام ، وديار الجزيرة وبلاد ارمينية ، وبعض ديار بكر وباقيها في طاعته ، ومعه ايضا صاحب سنجار ، والملك المعظم صاحب إربل ، ومعز الدين صاحب جزيرة ابن عمر ، وكان المرحوم نور الدين رضي الله عنه كل قليل قد انشب الحرب معهم ويقصد بلادهم ، فكان العادل بسببه لا يزال يستميل أصحاب الأطراف المجاورين لبلاده والأمراء الذين في عسكره بمصر والشام ، ليستعين بهم عليه ، وخوفا أن يميلوا إليه ، وبلغني ان العادل قال - وقد بلغه خبر حركته - : أي رجل هو نور الدين ، أنا خصمه بهذه البلاد جميعها وهذه العساكر الكثيرة ، وكل من يجاوره معي عليه وقد احدقنا به من جميع جهاته ، ومع هذا فلا يقنع منابالسلامة ، بل يريد أن يملك بلادنا ، ولولا أن الله تعالى أعاننا بكثرة أمراضه لعجزنا عنه ، وبلغني أيضا أنه قال لما توفي السعيد نور الدين - قدس الله روحه - : ذهب من كان يخاف ، ومن ذلك أنه ذكر عنده يوما ملك والده السعيد قلعة حلب ، وانه سلمها إلى أخيه عماد الدين ، فقال : والله ما أذكر هذه الحال إلا أعجب منها ، والله لو ملكتها لجالدت صلاح الدين بالسيف بباب مصر .

## وأما علو همته

فمن ذلك ما فعله بماردين من انقاذها من العسكر العادلي وإبقائها على صاحبها ، ولو أن ذا القرنين فعل ذلك لكان عظيما ، وما ذكرناه من طلب ملك البلاد فمن علو الهمة وكبر النفس .

- ٦٦٠٦ -

## وأما عقله وحسن آرائه

فإليه النهاية : سمعت أخي مجد الدين رحمه الله غير مرة ، يقول : ليس عند هذا المولى نور الدين مثله ، والله إنه أعلم بالمصلحة من كل ما رأيناه ، ولقد رأيت كثيرا من الملوك من أهله وغيرهم ما رأيت فيهم اسرع إدراكا ولا أهدى إلى الصواب منه في سرعة خاطر . ولو رمت ذكر جياد آرائه لاحتجت الى كثير من الأوراق ، لكن المقصود التنبيه من كل خلق على بعضه .

## وأما حسن عهده ومراعاته لحقوق خدمه ومماليكه في حياته

فأنا أذكر ما رأيته منه . فمن ذلك أن أخي مجد الدين - رحمة الله عليه - توفي سلخ ذي الحجة من سنة ست وستمائة ، فأرسل المولى المرحوم نور الدين - رضي الله عنه - إلي ذلك اليوم عدة مرار يقول : لا تخرجه إلى الجامع للصلاة عليه حتي اقول لك ، فإنني أريد أصلي عليه - وكان الزمان صيفا ، وكان رضي الله عنه ذلك اليوم غير طيب النفس وهو مدعوك البدن - فلما كان العصر وفتر الحر ، أرسل إلي يأمرني بحمله الى الجامع ، وانحدر هو فسبقنا ، فلما رأى الجنازة ، بلغني عنه انه بكي كثيرا وأظهر التأسف ، ولما قصدنا خدمته بعد ذلك اظهر لنا من الهم بسببه شيئا كثيرا ، وحملنا له ما جرت العادة وفيه سجادة للصلاة ، فرده وسألني عن شيء كان بلائه بنفسه ، فأومأت إلى السجادة ، فمد يده واخذها ، (حدث ) هذا جميعه وهو شديد الوعك . ولم يزل بعد ذلك يزداد مرضا إلى أن توفي بعده بسبعة أشهر ، رضي الله عنه .

ومن محاسن أعماله المدرسة التى أنشأها بباطن الموصل مقابل

دار المملكة ، وهي أحسن المدارس ، ووقف عليها الوقوف الكثيرة ، وجعلها وقفا على ستين فقيها من الشافعية ، سوى ما فيها من الصدقات الدارة والتعهدات للصوفية والفقراء .

## ذكر ملك ولده المولى الملك القاهر أعز الله أنصاره

كان المولى السعيد نور الدين ـ قدس الله روحه كما نور ضريحه ـ قد عهد الى ولده المولى الملك القاهر العالم العادل المؤيد المنصور المظفر المجاهد المرابط عز الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، ناصر أمير المؤمنين ، ابي المظفر مسعود أعز الله سلطانه ، وأعلى شأنه ، ونصر جنده وأعوانه ، وخذل عدو دولته وأهانه .

وهذا دعاء لو سكت كفيته
لأني سألت الله فيك وقد فعل

قبل وفاته بعدة سنين ، لأنه كان يرى الدنيا بعينه ، ويسمع منها بأذنه ، ويستهل صعاب الأمور منه ، ويستجلي بقربه ، ويستلذ نسم الهواء به ولم يزل في حجره ، وبين سحره ونحره ، فلما اشتد بالمرحوم المرض ، ورأى أن جوهر حياته قد استحال إلى العرض ، جدد العهود له ، وأمر بأخذ الميثاق على كافة الأولياء من الأجناد والأمراء والأعيان والأماثل والعلماء والأفاضل .

ساد الملوك لسبع عشرة حجة
ولداته إذ ذاك في اشغال

قعدت بهم هماتهم وسمت به
همم الملوك وسورة الأبطال

فلما توفي السعيد رضي الله عنه وأرضاه ، وأكرم نزله ومثواه ، قام مقامه ، وحفظ من الملك نظامه ، وتلافى ذلك الفتق ، ورقع ذلك الخرق ، واقتفى اثر السعيد بأبيه ، في كل ما يذره

زاد على ما شاد آباؤه
به وقد شاد الذي أثلوه

اقصر كل الخلق عن شأوه
حسرى وطال الكل إذ طالوه

وأضحت الدولة باسمة ، بعد أن كانت باكية ، وشاكرة ، بعد أن كانت شاكية ، ومستبشرة ، بعد ان كانت باسرة ، وعاودها بهاؤها وروعتها ، وفارقها عبوسها وروعتها .

ولما فرغ من وظيفة العزاء ، بذل من الأموال والتشريفات مالم يسبقه من مضى ولا يدركه من هوت ، عمت الأمير والمأمور ، وشملت الصغير والكبير ، وأظهر من الجود ما عير على حاتم وكعب ، وحير كل ذي عقل ولب ، وهذا موضع المثل : ليس السرف في الشرف ، وحين استقر في الدست ظهر عليه من علو الهمة الى معالي الأمور ، ومحبة العدل في سياسة الجمهور ، ومن الغرام بمكارم الأخلاق من الحلم والسخاء ، والعفو والاباء ، مالم يجاره فيه احد الا وسبقه ثانيا من عنانه ، ولم يباره ملك الا وجاء سكيتا ( ١٤٦ )في ميدانه ، واشتهر عنه من العدل مالو رآه كسرى لعاد خجلا يتعثر بأنياله ، ولاستتر حياء من وراء حجاله .

من كان ذاك ابوه كان لجده
ان يستطيل وأن يشاد بناؤه
من كان من نجل البدور ونجرها
لم يعدها إشراقه وعلاؤه

- ٦٦٠٩ -

ملك إذا افتخرت بآباء العلى
أولادها فخرت به آباؤه
من رام مشبهه سوى أسلافه
في المكرمات الغر خاب عناؤه
ملك الجلال فأشرقت لألاؤه
وحبي الجميل فأعرقت آلاؤه

ولو رمنا شرح مفردات محاسن أفعاله وحكم أقواله لطال الكتاب ، ولكنا نقتصر على حادثة واحدة يستدل بها على نظائرها ، وهي ، أنه - خلد سلطانه - جلس في دار العدل للانصاف ، والأخذ للضعفاء من الأقوياء والأشراف ، فحضرت امرأة عمياء ادعت أن بعض الملوك من عمومته ضربها ببندقية عند الجلابين رماها ، كانت سبب عماها ، فأمر باحضاره الى الحاكم وهو عنده ، فحضر وساوى خصمه وقيل له الدية أو القصاص ، فقام فزعا قد أيس من الحياة ، وهو لا يصدق بالنجاة ، فأرضى خصمه بمال بذله ، وعن القصاص استنزله ، فعادت الامرأة وذكرت انها قد رضيت وعفت عن حقها ، وهذه حالة لم يسمع بمثلها ، ولم يدون في كتب التواريخ عدلها .

يا ليت شعري من هذي مكارمه
ماذا ترى ببلوغ النجم ينتظر

أجرى الله على يده الشريفة كل صالحة ، ودفع عن حضرته العلية كل فادحة ، ووفقه للصواب في الأقوال والأفعال ، ولازال سلطانه قاهرا ، وفلك سعادته دائرا ، ولا برح جد عدوه عاثرا ، وذكره خاملا دائرا .

لما فرغ المولى السعيد المرحوم نور الدين أسكنه الله

جنانه ، وأفاض عليه عفوه ورضوانه ، وملأ ضريحه روحه وريحانه ، من تقرير قواعد ولده المولى الملك القاهر أعز الله أنصاره ، أراد أن يشد أزره بمن يجعله له وزيرا ، وعلى ما فوض إليه من أعباء المملكة ظهيرا ، ليكون مدبرا لدولته ، وناظرا في مهام مملكته ، ونائبا عنه في ولاية رعيته ، فاعتبر خواصه وأولياءه ، ومماليكه وأصفياءه ، وكفاته وأمراءه ليختار منهم من يكون أهلا لهذا الأمر الكبير ، وقيما بهذا الشأن الخطير ، فلم ير فيهم أقوم سيرة ، ولا أخلص سريرة ، ولا أتم وفاء ، ولا أعلى همة وأكثر سخاء ، ولا أغزر حياء ومروة ، ولا أغنى غناء ولا أعظم فتوة ولا أحسن اصطلاحا ، ولا أكثر للحق اتباعا ، ولا أعدل منه احكاما ، ولا أعلم بما يكسب الدولة انتظاما ، من المولى الأمير اصفهسلار الكبير العادل الكامل الأسعد المقبل بدر الدين (لؤلؤ ( ١٤٧ ) ) عضد الاسلام وسيد الأمراء ، حسام امير المؤمنين اسبغ الله ظله ، واعلى محله ، وقهر عدوه وأذله .

أوحده الله فما مثله
لطالب ذاك ولا ناشد
ليس على الله بمستنكر
أن يجمع العالم في واحد

فحيث ، وجد ماكان ينشده ، وظفر بما كان يريده ويقصده ، تقدم إليه بخدمة ولده ، وحكمه في أمواله ورجاله وبلده ، ورأى أنه قد أسند هذا المهم إلى الولي الوافي ، وفوض هذه الزعامة إلى المخلص الكافي ، وقد كان - رضي الله عنه - يتفرس في هذا الأمير ، إستحقاق التقدم والتدبير ، فلم يزل يدرجه بين الطافه وكرامته ، وولاياته واقطاعاته ، من رتبة إلى أخرى هي أعلى منها مكانا ، وأرفع شأنا ، الى أن ولاه إمارة الجيوش والعساكر ، وسياسة القبائل والعشائر .

ولما استأثر الله تعالى بالمرحوم ، قام في خدمة المولى الملك القاهر

مقاما يحمده عليه الداني والقاصي ، والمطيع والعاصي ، والبادي والحاضر ، والمنجد والغائر ، ولقد جاء على حين فترة من الكرام ، وكثرة من اللئام ، فجدد من أعلام السيادة ما كان دارسا ، وأضحك من ثغور المروءة ماكان عابسا ، واختالت الدولة من حسن تدبيره اختيال العروس ، ورفلت من صنائب آرائه في أحسن لبوس ، وافتخر به دهره على سائر الدهور .

إذا نحن اثنينا عليك بصالح
فأنت كما نثني وفوق الذي نثني
وإن جرت الألفاظ يوما بمدحه
لغيرك إنسانا فأنت الذي نعني

هذه نبذة يسيرة من محاسنه تليق بهذا المختصر ، وقطره من بحر مكارمه تناسب هذا المعتصر، ولو أوردتها مفصلة لخرجنا عما اعتمدناه ، وتركنا ما قصدناه ، ونحن إن شاء الله تعالى نأتي على كثير من ذلك في المستقصى في التاريخ ، والله الموفق للصواب ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الأبرار وسلم تسليما كثيرا .

obeikandl.com

# حواشي ابن جبير

١ ـ كذا ... صاحب الموصل سيف الدين غازي بن قطب الدين بن زنكي ، وصاحب سنجار أخوه ... ين زنكي الثاني . وتضبط معلومات ابن جبير على ما أورده ابن الاثير في الباهر وع... جاء في المصادر الاخرى في موسوعتنا .

٢ ـ أي أصابه الهزال بسبب التبتل .

٣ ـ قطب الدين ايلغازي بن ألبي الارتقي ، تقدم ذكره في تاريخ آمدوميافارقين .

٤ ـ انظر المعجب لعبد الواحد المراكشي ـ ط . القاهرة ١٩١٤ ص ٤٠ حيث نسبه للحسن بن رشيق .

٥ ـ أي الخنازير لاسيما الاناث منها .

٦ ـ أي برزت .

٧ ـ الملاك هنا : الزواج

٨ ـ سورة ص ـ الآية : ٤٢

٩ ـ مسوفة احدى قبائل المرابطين . انظر الحلل الموشية ص ١٧ .

١٠ ـ المقصود هنا مقبرة باب الصغير .

١١ ـ سورة الاسراء ـ الآية :٩٧

١٢ ـ كذا وهو وهم ، لان سميساط مدينة على شاطىء الفرات . معجم البلدان والسميساطي هو أبو القاسم علي بن محمد ، وكان من أعيان دمشق .

١٣ ـ نسبة الى الاحذف بن قيس التميمي الذي عاصر الامام علي وأوائل خلفاء بني أمية وشهر بالحلم .

١٤ ـ رشيدي نسبة الى الخليفة هرون الرشيد ، والجعفري نسبة الى جعفر المتوكل .

١٥ ـ عمري : نسبة الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

١٦ ـ كذا بالاصل .

١٧ ـ سورة الاعراف ـ الآية : ١٥٥ .

١٨ ـ سورة يوسف ـ الآية : ٩٠

١٩ ـ أي عمد تعريب كلمة Baptize

٢٠ ـ سورة طه ـ الآية : ١٢٧

٢١ ـ الرهو : السكون . القاموس

# حواشي كتاب الباهر

١ ـ أضيف ما بين الحاصرتين لاستقامة السياق .
٢ ـ الاشـــــارة هنا إلى عز الدين مســـــعود صـــــاحب الموصـــــل ٦٠٧ ـ ٦١٥ هـ ) / ١٢١٠ ـ ١٢١٨ م ) الذي حمل لقب القاهر .
٣ ـ صاحب الموصل ( ٥٨٩ ـ ٦٠٧ هـ / ١١٩٣ ـ ١٢١٠ م )
٤ ـ سورة الحديد ـ الاية :٢١
٥ ـ المخشلب . قطع الزجاج المتكسر أو الخزف . القاموس
٦ ـ الارض الجرز : التي لانبات فيها فهي مجدبة . النهاية لابن الاثير .
٧ ـ لم يذكر اسمه ولعله صاحب ملك نامة
٨ ـ كذا وهو شاذ لان المتداول : « جلال الدين » .
٩ ـ حصن كيفا ، وتمت معالجة هذه المسائل من قبل في الجزء الاول من كتاب المدخل .
١٠ ـ بلد قرب تكريت على فم نهر الزاب الاسفل . معجم البلدان .
١١ ـ هذا لقب رتبة بيزنطية عسكرية وليس أسما لعلم من الاعلام .
١٢ ـ بين بغداد والانبار . معجم البلدان .
١٣ ـ كورة من نواحي نيسابور . معجم البلدان

١٤ ـ كذا بالاصل وهو وهم صوابه حذف « من أولاد » كما تقدم معنا في الجزء الاول من المدخل .
١٥ ـ يرجح أنه مات مسموما .
١٦ ـ طراز من بلاد ما وراء النهر ، وأيضا كاشغر ، وكذلك بلاساغون . معجم البلدان .
١٧ ـ أضيف ما بين الحاصرتين من الروضتين لابي شامة .
١٨ ـ التراقي نوع من أنواع الدمامل تظهر بالحلق .
١٩ ـ من غير المؤكد أنه خطب لتتش بالسلطنة في بغداد بل أنه رام ذلك وأخفق .
٢٠ ـ من أنواع القوارب النهرية .
٢١ ـ كان آنذاك علي بن طراد الزينبي ، وكان من أبرز شخصيات عصره .
٢٢ ـ المتاع الخاص من أقمشة وملابس .
٢٣ ـ السانية الناقة التي يستقى عليها .
٢٤ ـ الجندب : الجراد ، وصر : صوت وصاح شديدا . القاموس .
٢٥ ـ سورة الانفال ـ الاية : ٦٧ .
٢٦ ـ ديوان أبي تمام ـ ط . القاهرة ١٩٦٧ ح ١ ص ٢١
٢٧ ـ من أنواع المراكب النهرية .
٢٨ ـ هكذا سيذكره بعد أسطر .
٢٩ ـ سورة الانفال ـ الاية : ٣٢ .
٣٠ ـ اضيف ما بين الحاصرتين لاستقامة السياق ومنه .
٣١ ـ سورة الاحزاب ـ الاية : ٢٥ .
٣٢ ـ خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الاصـفهاني ، قسـم بـلاد الشـام ، ح ١ ـ ط دمشق ١٩٥٥ ص ٤٧٠ ـ ٤٧٣ مع فوارق
٣٣ ـ الميثرة : الثوب الذي تجلل بـه الثياب فيعلوهـا ، وهنة كهيئة المرفقـة تتخـذ للسرج القاموس .

٣٤ ـ أي في بلد دمشق .
٣٥ ـ بعرين الان ( بارين ) قرية تتبع ناحية عوج ـ منطقة مصياف ، محافظة حماه في سورية . المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري .
٣٦ ـ أي الرمح
٣٧ ـ من أيام معركة القادسية .
٣٨ ـ سورة الاحزاب ـ الاية : ٦٣ .
٣٩ ـ سورة ص ـ الاية :٣ .
٤٠ ـ سورة النساء ـ الاية : ١٢٠
٤١ ـ وقعت العمادية في شمالي الموصل وهي من أعمالها . معجم البلدان
٤٢ ـ ماتزالان تحملان الاسم نفسه في عراق اليوم .
٤٣ ـ انظر ما تقدم حول هذا الامر نفسه لدى المصادر السريانية ولدى ابن الازرق الفارقي
٤٤ ـ أبو تمام الشاعر .
٤٥ ـ ديوان المتنبي ـ ط . بيروت ١٩٦٩ ص ٢٧٣ .
٤٦ ـ أي يبطن أمرا ويظهر سواه .
٤٧ ـ سورة الاعراف ـ الاية : ١٤٩ .
٤٨ ـ سورة هود ـ الاية : ١٠٢
٤٩ ـ الخامع : الضبع .
٥٠ ـ سورة الاسراء ـ الاية : ٨١ .
٥١ ـ سورة النور ـ الاية : ٥٥ .
٥٢ ـ اضافة من السياق نفسه .
٥٣ ـ الزوزان كورة بين اخلاط وأذربيجان وديار بكر والموصل معجم البلدان
٥٤ ـ اضافة مما نقله صاحب الروضتين كما سيمر معنا .
٥٥ ـ فاظ : مات . القاموس .
٥٦ ـ يوم الهباءة من ايام العرب قبل الاسلام بين عبس وذبيان . وكان البراض بن قيس من فتاك العرب قبل الاسلام وهو الذي تسبب بحرب الفجار ، والحجاف هو ابن حكيم ، كان من فتاك العرب في الاسلام وهو الذي أوقع بتغلب يوم البشر ، والجحاف هو سيل حجف كل شيء بمكة سنة ثمانين للهجرة .
٥٧ ـ على مقربة من الرقة عند موقع أبي هريرة .
٥٨ ـ نوع من الفطير المصنوع من السكر والفستق والزبد .
٥٩ ـ زيادة اقتضاها السياق .
٦٠ ـ بلد قريب من الرحبة . معجم البلدان .
٦١ ـ أضيف ما بين الحاصرتين من الروضتين .
٦٢ ـ مدينة على دجلة فوق الموصل . معجم البلدان .
٦٣ ـ بقعاء الموصل . انظر مادة الموصل في معجم البلدان .
٦٤ ـ سورة التوبة ـ الاية : ١١١ .
٦٥ ـ على مقربة من خانق الربوة خارج دمشق .
٦٦ ـ سورة الصافات ـ الآية : ٤٤ .
٦٧ ـ بين نصيبين وماردين . معجم البلدان
٦٨ ـ وقعت يغرى في منطقة العمق .
٦٩ ـ هو أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير القيسراني ، من شعراء الخريدة ـ قسم بلاد الشام ـ ج ١ ص ٩٦ ـ ١٦٠ .
٧٠ ـ هو سعد بن محمد بن صيفي التميمي (ت ٥٧٤ هـ / ١١٧٨ م ) انظر ترجمته في بغية

الطلب لابن العديم - ط . دمشق ١٩٨٨ ص ٤٢٦٢ - ٤٢٧١ . وقد طبع ديوانه في بغداد عام ١٩٧٤ .

٧١ - زيادة اقتضاها السياق ومنه اخذت .

٧٢ - لاتتوافق هذه التفاصيل مع الخبر المتقدم .

٧٣ - هذه الابيات لابن منير الطرابلسي ، انظر ديوانه - ط . طرابلس ١٩٨٦ ص ٢٠٨ - ٢١٤ .

٧٤ - ديوانه ص ٢١٥ - ٢١٨ .

٧٥ - زيد ما بين الحاصرتين من الكامل لابن الاثير ح ٩ ص : ٢٩ .

٧٦ - سورة فاطر - الآية : ٤٣ .

٧٧ - انظر الخريدة - قسم بلاد الشام - ح١ ص - ١٥٧ - ١٥٩ ، هذا وجميع المواقع المذكورة في نواحي حلب .

٧٨ - السحل الثوب الذي لايبرم غزله أو الحبل ، والامرار القوة والاحكام .

٧٩ - ديوان ابن منير الطرابلسي ص ٢٢٣ - ٢٢٥ .

٨٠ - ديوان ابن منير الطرابلسي ص ٢١٥ - ٢١٨ مع فوارق كبيرة .

٨١ - في الكامل ج ٩ ص ٣١ « سبع وأربعين » ، وهو الاصح كما هو واضح من السياق .

٨٢ - كانت رئاسة دمشق انذاك لرجال من آل الصوفي غالبا ما كانوا على غير وئام مع امراء الدولة البورية .

٨٣ - ديوان ابن منير الطرابلسي ص ٢٦٢ - ١٦٣ .

٨٤ - كنا وهو وهم ، فقد ظهر بدو منقذ اولا في كفر طاب ، وذلك مع بدايات تاريخ الدولة المرداسية ، ثم جاء الاستيلاء على شيزر مع سقوط حكم بني مرداس في حلب ، وسلف لي معالجة هذا كله في الجزء الاول من كتاب المدخل من موسوعتنا هذه .

٨٥ - قلعة لاترام في الجبال التي إلى شرقي الدوصل . معجم البلدان .

٨٦ - أورد ابن الجوزي أخبار هذه الاحداث في كتابه المنتظم في جوادث سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ، وقد قمت بتحقيق كتاب المنتظم وهو قد شارف على الانتهاء طباعة .

٨٧ - محلة كبيرة ذات أسواق بالجانب الغربي من بغداد . معجم البلدان .

٨٨ - اليزك لفظ فارسي معناه الطليعة .

٨٩ - هي بحيرة قطينة الحالية .

٩٠ - أضيف ما بين الحاصرتين من الروضتين ومفيد مقارنة هذه المعلومات مع المواد التي ستمر معنا في نص البدر العيني .

٩١ - المشهور أن جيش الطواويس هو الجيش الذي أرسله الحجاج بقيادة عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث للقتال ضد رتبيل صاحب كابل .

٩٢ - عم قرية بين انطاكية وحلب . معجم البلدان .

٩٣ - في منطقة صافيتا التابعة لمحافظة طرطوس قرية اسمها السويده ، تبعد عن طرطوس مسافة ٣٢ كم ، فلعلها المقصودة هنا .

٩٤ - ليس لواحد من هؤلاء ترجمة فيما وصلنا من كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم الذي كنت قد حققته وطبعته في دمشق ١٩٨٨ .

٩٥ - واد بين مكة والطائف . معجم البلدان .

٩٦ - الاضافات من الروضتين .

٩٧ - تطلق العرب على فص الياقوت « اسم جبله

٩٨ - ديوان ابن منير ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

٩٩ - المنيطرة حصن قرب طرابلس . معجم البلدان .

١٠٠ ـ سورة الأعراف ـ الآية : ٩٥ .
١٠١ ـ الدرفش : المخرز ، والدرستر ك : مذشار صغير .
١٠٢ ـ سورة آل عمران ـ الآية : ٢٦ .
١٠٣ ـ سورة الرعد ـ الآية : ٣٩ .
١٠٤ ـ سورة آل عمران ـ الآية : ٥٤
١٠٥ ـ سورة البقرة ـ الآية :٢١٦
١٠٦ ـ سورة النساء ـ الآية: ١١٩ .
١٠٧ ـ سورة الأنعام ـ الآية : ٤٤
١٠٨ ـ قال هذا الخارجي الذي حاول اغتيال عمرو بن العاص فأخفق .
١٠٩ ـ سورة الأحزاب ـ الآية : ٢٥
١١٠ ـ في أحواز بلدة ذوى في حوران
١١١ ـ سورة الأنفال ـ الآية : ٤٢
١١٢ ـ سورة البقرة ـ الآية : ٢٤٩
١١٣ ـ الجنايات هنا ماكان يفرض من قبل السلطة من ضرائب وغرامات تأديبية
١١٤ ـ الكنهور : من السحاب قطع كالجبال ، أو المتراكم منه ، والآل : السراب . القاموس
١١٥ ـ الاضافات من الكامل ح ٩ ص ١٠٩ .
١١٦ ـ الاضافة من الروضتين
١١٧ ـ بائع فقاع . والفقاع شراب يتخذ من الشعير .
١١٨ ـ الاضافة بين الحاصرتين من الروضتين .
١١٩ ـ التركش بالفارسية : الجعبة .
١٢٠ ـ قال هذا العماد في مطلع كتابه البرق الشامي ، انظر سنا البرق الشامي . ط . القاهرة ١٩٧٩ ص ١٦ .
١٢١ ـ سورة الانفال ـ الآية : ٤٢
١٢٢ ـ سورة الاسراء ـ الآية : ٥٨
١٢٣ ـ سورة الاحزاب , لآية ٣٨
١٢٤ ـ كان والد ابن المقدم هو الذي سلم من قبل سنة ٥٤٤ هـ ـ ١١٤٩ م سنجار لنور الدين ، وذلك خروجا عن أمر سيده صاحب الموصل .
١٢٥ ـ البرسام : علة يهذى . فيها . القاموس .
١٢٦ ـ الاضافتان من الكامل ج ٩ ص ١٤٨
١٢٧ ـ جاء هذا العنوان بالاصل مشوشا هكذا : « فصل في سبب قضية الذي جرت في ذكر القبض على مجاهد بن قايماز وماتبعه من الوهن » ولعل ما اثبتناه هو الصواب .
١٢٨ ـ بيشكاه فارسية معناها : صدر المجلس رئيس . ذو مقام عال .
١٢٩ ـ تل موزن بلد بين رأس عين وسروج . معجم البلدان
١٣٠ ـ الاضافات من الروضتين .
١٣١ ـ بياض بالاصل
١٣٢ باجبارة : قرية على نحو ميل من الموصل الى الشرق منها . معجم البلدان
١٣٣ ـ حاصر صلاح الدين الموصل اكثر من مرة
١٣٤ ـ سورة الصف ـ الآية :٨
١٣٥ ـ اضيف ما بين الحاصرتين من مرج الكروب لابن واصل الحموي ح ١ ـ ط . القاهرة ١٩٥٧ ص ٢٣ .
١٣٦ ـ زيد ما بين الحاصرتين من الكامل لابن الاثير ج ٩ ص ٢٣٩ .
١٣٧ ـ فراغ بالاصل .

١٣٨ ـ اضيف مابين الحاصرتين من الكامل ج ٩ ص ٢٤٠
١٣٩ ـ زيد ما بين الحاصرتين من الكامل ج ٩ ص ٢٤٠
١٤٠ ـ اضيف ما بين الحاصرتين من الكامل ج ٩ ص ٢٤٨
١٤١ ـ كان صاحب ماردين انذاك يولق بن ايلغازي بن ارتق . انظر الكامل ج ٩ ص ٢٤٢ ، ٢٤٦ .
١٤٢ البيكار كلمة فارسية معناها الحرب والمحاربة .
١٤٣ ـ الاضافة من الكامل ج ٩ ص ٣٠١
١٤٤ ـ لعلها التي بين اسعرت وجزيرة ابن عمر . معجم البلدان .
١٤٥ ـ استخرج هذا الرقم تقديرا مما تقدم . فقد جاء مكانه بياض بالاصل .
١٤٦ ـ السكيت : آخر خيول الحلبة . القاموس .
١٤٧ ـ اضيف ما بين الحاصرتين من الكامل ج ٩ ص ٣٠٤

obeikandl.com